

مقدمة الكتاب

تفصل بين العالمين : القديم والوسيط فجوة كبيرة ، قد لا يسد ثغرتها - من حيث اهتمام القارئ العام - إلا ذلك السفر الجليل « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » الذى ديجته براعة جيبون . وعلى الرغم من الأبحاث المستفيضة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، فإن من العبث أن ننكر أن القرون المعروفة باسم « العصور المظلمة » لا تزال من أشد مراحل التاريخ الأوروبى غموضا . ومع ذلك ، فلا شك أن الجهود المبذولة فى استجلاء كثير من المسائل الرئيسية قد أحرزت بعض التقدم . فإن بعض الآراء قد نبذت نبذاً قطعياً ، إذ يرى النقات اليوم مثلاً ، أن الإمبراطورية الرومانية لم تنته بسقوط عاصمتها الغربية ولا بخلع رومولوس أو غسطلوس . وتفسير زوال العالم الرومانى بأنه حادث فجائى يفسح المكان بعد المزيد من التحليل ، لنظرية تطور قائمة على قسط أكبر من الاستدلال . كما أن ما أسدته بيزنطة فى التاريخ من جلائل الأعمال أخذ ينال حظه من الإنصاف ، فضلاً عن التقدير الذى نال العناصر الأصيلة للحضارة التى واصلت حمل لواء التقاليد الرومانية على ضفاف البوسفور .. ولم يعد أحد ينظر إلى الهجوم الإسلامى من خلال أعين خصومه فى القرون الوسطى ، الذين ضرب تهديده لعقيدتهم على أبصارهم غشاوة ، أعمتهم عن الأصل المشترك للثقافتين المسيحية والإسلامية . ذلك لأن الدراسة العميقة النقادة لمن ذلك الزمان وأدبه^(١) أفضت فى كثير من الحالات إلى ازدياد تقدير الإسلام ، كما أنها أفضت دون ريب إلى تعميق الإحساس باستمرار الصلة بين النظام القديم والنظام الجديد .

(١) يقصد المؤلف هنا لفظة الأدب بمعناها العام الذى يضم جميع ما حوته اللغة من المصنفات والمؤلفات . (المترجم)

وازداد وضوح كبار الشخصيات في ذلك الزمان عن ذى قبل ، كما أن مستكشفات علم الآثار القديمة (الأركيولوجيا) والاهتمام الحديث بالأحوال الاقتصادية ، هيأت للخيال الناشط صورة أكثر إشراقاً للحياة اليومية للمجتمعات والأفراد . وقد حاولنا في الصفحات الآتية تقديم خلاصة موجزة لقرون أربعة من التاريخ الأوربي كما تشاهد في ضوء تلك النتائج .

ومن الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى تأكيد ذلك الطابع النعسفي للعصور التاريخية التي ليست في الواقع ، من نواح معينة - سوى وسيلة متميزة للحفظ والتذكر . فالمعاملات العضوية لا يمكن أن تشطر شطراً باتاً بلمسة قلم ، ولا يكاد عاقل يتوقع أن تتطور جميع أشكال النشاط البشرى بنسبة واحدة متساوية . ولذا وضع العلماء تواريخ مختلفة لبدء العصور الوسطى ، تتراوح بين القرن الثالث والقرن الثامن ، ولكل من هذه التواريخ من المبررات ما يتفق مع ما يرتبط من أهمية بمظهر من مظاهر الحضارة الأوربية . وبناء على هذا ربما كان يحق لعام ٣٩٥ أن يعد تاريخاً لبدء تلك العصور مثلما يحق لأي عام آخر ، ذلك أن وفاة ثيودوسيوس الكبير حدثت في لحظة بالغة الأهمية لأوروبا . فإن ثيودوسيوس ظل إبان السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يحكم دون منازع في الأملاك الرومانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب نهائياً ، على الرغم من أن الإمبراطورية لم تبرح من الناحية النظرية متحدة . ففي مدة حياته كان في الإمكان اعتبار بريطانيا وبلاد الغالة وأسبانيا أجزاء متكاملة من الإمبراطورية الرومانية ، ولكن ثلاثتهم انتقلن في أقل من جيل واحد إلى قبضة فاتحين من المتبربرين الهمج ، وسقطت روما فريسة في يد القوط الغربيين . وهذا الإمبراطور المقاتل الذي هلك اثنان من أسلافه

المباشرين صرعى فى ميدان القتال على الحدود ، خلفه على العرش سلسلة من الحكام الضعاف ، وانتقل السلطان الحقيقى فى الدولة الرومانية إبان ما يقارب القرن من الزمان إلى قبضة أمراء الجند . ولو نظر المرء إلى الدولة من ناحيتها الداخلية لما وجد فيها إلا تغيرات طفيفة لا تكاد تستلفت الأنظار . ذلك أن غارات المتبربرين ، وإن اتسمت بالفظاعة النامة ، لم تزد على أن عجبت بالفوضى والحن التى كابدت العناية منها معظم الولايات الغربية منذ بدء نشوب الفوضى فى القرن الثالث . ولم تكن الإصلاحات الخطيرة التى أنجزها دقلديانوس وقسطنطين ، والتى أنهت هذه الفوضى ، إلا تحقيقاً إلى حد كبير لنزعات كانت واضحة للعيان فى عهد الإمبراطورية الأولى - وذلك لأن نهاية القرن الرابع لم تحدث أى انقطاع حقيقى فى نظام الحكم الإمبراطورى . وكل ما فعلته أنها اعترفت صراحة بحقيقة واضحة هى أن : « أسرة قيصر » خلّفت فعلاً الهيئة التنفيذية الدستورية التى ورثتها الإمبراطورية عن الجمهورية الرومانية . ومع ذلك ، فهناك تغيير واحد كانت له أهمية أعظم من أى تغيير آخر فى مستقبل أوروبا أدخله قسطنطين حين أشرك الكنيسة المسيحية فى حكم الدولة . إن هذه الخطوة هى الفاصل بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى . ذلك لأن اعتناق العقيدة الجديدة قد غير اتجاه عقول الناس وحدد سياسة حكاهم . ولم تكف الإمبراطورية الرومانية نهائياً عن المحافظة على التوازن بين المسيحى والوثنى إلا فى عهد ثيودوسيوس ، ولذا فإن النتائج الكاملة لإجراء قسطنطين الثورى لم تأخذ فى الظهور إلا فى تلك الآونة . لهذا السبب ، إن لم يكن لغيره ، يجوز حقاً لهذا البحث الذى نضعه بين يديك أن يتخذ من وفاة ثيودوسيوس الكبير مؤسس الدولة المسيحية نقطة بداية .

وربما وجب علينا أن نذكر أن الغرض من الخرائط التخطيطية والصور التي يحتويها الكتاب هو التوضيح والإشارة . وسيجد القارئ في قائمة المراجع إحالات إلى بعض الأطالس التاريخية والمراجع المصورة للفن في أوائل العصور الوسطى .

وأود أن أعبر عن شكري للأستاذ العالم ن . ه . باينز على ما بذله من مساعدة وتشجيع مشمري في أثناء تأليف هذا الكتاب، وإلى المستر ا.ل. ودوارد والأستاذ العلامة ه . ا . ر . جب والمسترد . بيرلي والمسترج . ن . ل . مايرز على ما قدموه من نقد نفيس واقتراحات قيمة ، وإلى القائمين على مطبعة كلارندون لقاء كرم أخلاقهم وسعة صدورهم .

ه . سنت . ل . ب . م

أغسطس ١٩٣٥